

من الأدب المقارن إلى الأدب العالمي

د. عبد النبي اصطيف

ناقد وباحث وأستاذ جامعي من سورية -
عضو اتحاد الكتاب العرب



على الرغم من أن إدوارد سعيد
كان على مدى أربعين عاماً يُدرّس
الأدب الإنكليزي والأدب المقارن في
جامعة كولومبيا في نيويورك، فإنه
بمنظوره الطباقى contrapuntal
perspective قد وأد الدرس المقارن
للأدب الذي ساد في أيامه،

عندما دمج «الأخر/غير الغربي» في منظوره الطباقى، ودعا إلى الإصغاء إلى صوته
الخافت الذي تجاهلته المركزية الغربية، وإلى تظهيره بغرض إعادة الوحدة إلى المقاربة
المقارنة للأدب، ضمن إطار ما بات يعرف بـ «النظرية ما بعد الاستعمارية»، والتي دشّن
جدواها بكتابه الاستشراق (1978)، وعزز حضورها في المشهد النقدي الأمريكي خاصة،
والعالمي عامة، بكتابه الثقافة الإمبريالية (1993)، فضلاً عن كتبه ومقالاته الأخرى.

وعندما خلفته غاياتري شاكرافورتى سبيفاك في النهوض برسالة الدرس المقارن للأدب في جامعة كولومبيا، أعلنت بكتابها موت علم (2003)(1) وفاة الدرس المقارن للأدب بالطريقة التقليدية، والتي نبذها سعيد بسبب مركزيتها الغربية، ودعت إلى أدب مقارن جديد يجمع ما بين الأدب المقارن وبين دراسات المنطقة Area Studies ، ممهدة بذلك الطريق نحو إعادة نظر جذرية في تصور الدرس المقارن للأدب، وبخاصة صلته بالأدب العالمي الذي عانى على مدى ما يقرب من قرنين من المركزية الغربية Western Centrism. وهكذا شهدت التسعينيات في القرن الماضي تفكيراً جديداً في الأدب المقارن أعاد فيه منظره «الأدب العالمي» إلى المركز في الدراسات المقارنة، حتى غدا الدرس المقارن للأدب مجرد ممارسة في دراسة الأدب العالمي تؤكد ما سبق إليه ويليك عندما أصرَّ على أن الأدب المقارن ليس غير دراسة الأدب من منظور عالمي يتجاوز الحدود اللغوية والسياسية والعرقية لهذا الفن الجميل(2).

وتجدد الاهتمام هذا الذي بدأ في عقد التسعينات من القرن الماضي، كما يشير إلى ذلك تيو داهائين D>haen Theo وسيزر دومينغز Dominguez Cesar ومادس روزندال تومسن Mads Rosendahl Thomsen في «مدخلهم» إلى المجلد الجامع للبيانات المتصلة بـ «الأدب العالمي»(3). تجلَّى بدق هائل، يكاد يشبه الانهيار الثلجي، للمختارات والكتب والدراسات والمقالات المعنية بالأدب العالمي(4)، وبنشطات ثقافية وأكاديمية غنية متنوعة، مثلما تجلَّى بالمحاولات العديدة لإعادة تعريفه انطلاقاً من حوارات معمقة ومناقشات واسعة وقراءات مختلفة لبيانات غوته عن الأدب العالمي، والسعي، في الوقت نفسه إلى تطوير مقاربات جديدة لنصوصه ومسائله التي تثيرها هذه البيانات.

وفي مسعى مشكور لتفسير تجدد هذا الاهتمام يقترح محررو هذا المجلد عاملين مهمين (على الرغم من وجود عوامل أخرى أقل أهمية)، يكمنان وراءه، وهما:

- العولة Globalization وما خلفته من آثار في مفهومي الثقافة والهوية، خاصة وأنه، في ظل التوسع الهائل في مجالات التبادل الثقافي، باتت الحاجة ملحة للنظر في دور الأدب ووظيفته خارج حدود الدولة القومية، وخارج ما ارتبط بها من «أدب قومي»، غدا بدوره موضع مساءلة شديدة.

• وإعادة التنظيم الداخلي للدراسة الأدبية في أقسام اللغات القومية والأجنبية في الجامعات الغربية بتحفيز من العولمة من جانب والنظريات الفكرية والنقدية والأدبية التي شهدتها ما يسمى عصر النظرية من جانب آخر.

فقد كان «الأدب العالمي» يُدرّس في أقسام الأدب المقارن، ويدرج في برامجه، أو في أقسام اللغات الحديثة، غير أن هذه الأقسام لم يكن لها من سعة الصدر ما يكفي لاحتواء الأدب العالمي، ومن ثم فإنها أخفقت إخفاقاً ذريعاً في مهمتها في دراسة آداب العالم، بسبب الحجم الهائل لنصوص هذه الآداب من جهة، وبسبب من ضعف اهتمامها بالآداب الصغيرة، آداب الجنوب والشرق والعالم الثالث عامة، والتي تُركت العناية بها إلى الأقسام المختصة بلغاتها وثقافتها، أو أقسام ومراكز الدراسات الإقليمية، أو دراسات المنطقة، من جهة أخرى. وهكذا انتهى المطاف بأقسام الأدب المقارن واللغات الحديثة بالأدب العالمي إلى قصر العناية بهذا الأدب على مجموعة مختارة من روائعه المترجمة إلى الإنكليزية بشكل خاص، والمتمركزة حول الذات أو الذوات الغربية. علماً أن كثرة متزايدة من نصوص آداب العالم غير الغربية قد أخذت طريقها إلى لغات العالم الأول عن طريق الترجمة وأصبحت ميسورة بالإنكليزية والفرنسية والألمانية وسواها، ولكنها ظلت، مع ذلك، خارج دائرة الأدب العالمي التي اقتصرت في معظمها على الآداب الغربية.

وعندما جاء إدوارد سعيد بنظرية ما بعد الاستعمارية post-colonialism التي سعت إلى زعزعة الهيمنة الغربية على القانون الأدبي العالمي من خلال العناية بالقوانين الأدبية التي تحكم الأعمال الأدبية غير الغربية، والاهتمام بمسائل الهوية القومية، والكوزموبوليتينية، والهجرة، والمنفى، لم يستطع أتباعها، الذين لم يكن لهم موهبة سعيد، ولا سعة اطلاعه، ولا قدرته على التحليل والربط بين الأعمال الأدبية على طرفي القسمة الوجودية بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ضمن ما سماه بالتركة الإمبريالية، أن يدمجوا الدراسات ما بعد الاستعمارية بالأدب المقارن، ومن ثم فإنهم لم يستطيعوا أن يتدبروا الأدب من خلال المنظور العولمي الذي يتجاوز الحدود السياسية واللغوية والقومية والإثنية في اهتماماته بأدب الهجرة والمهاجرين والمنفى والمنفيين والهامش والمهمشين، وبخاصة المنضوين الذين ظلوا يرزحون تحت ضغوط قوى المال والسلطة.

ومن هنا جاء الاهتمام بالأدب العالمي، والسعي الحثيث والجاد من جانب دارسيه الجدد في ربع القرن الأخير إلى توسيع دائرته لتشمل آداب العالم كله من جهة، وتعيد النظر في مقارباته بغرض تطويرها من جهة أخرى، في مسعى جاد لترسيخ المنظور العولمي للأدب بصرف النظر عن اختلاف لغات منتجيه وثقافتهم وأعراقهم، بعد أن انفتح العالم بعضه على بعضه الآخر إذ تحول إلى قرية كونية، وتعزز التبادل الثقافي والأدبي بين أحيائه، ولم تعد حدوده السياسية قادرة على الصمود أمام حركة الناس والأموال والبضائع والأفكار.

ومن هنا انبثقت مفاهيم الأدب العالمي/العولمي باللغة الإنكليزية، والأدب العالمي/العولمي بالفرنسية، والأدب العالمي بالألمانية، والإسبانية وغيرها من لغات العالم الرئيسية التي سادت في العلم وعالم المال والأعمال والتجارة، مباشرة بأداب هجينة تنطوي على ثقافات متعددة، معبرة عن العالم المتعدد الهويات لمنتجيه من الشرق والغرب والشمال والجنوب.

الهوامش

(1) انظر:

,Gayatri Chakravorty Spivak

Death of A Discipline

(Columbia University Press, New York, 2003).

(2) انظر:

,René Wellek

Discriminations: Further Concepts of Criticism

20-Yale University Press, New Haven, 1970), pp. 19)

(3) انظر:

D>haen, Theo, Dominguez, Cesar , and Thomsen, Mads Rosendahl Thomsen, edited by

,World Literature: A Reader •

.Routledge, New York and London, 2012), pp. X-xi)

(4) انظر على سبيل المثال إسهامات تيو داهائين في هذا المجال::

D>haen, Theo, Damrosch, David , and Kadir, Djelal, edited by

The Routledge Companion to World Literature •

(Routledge, New York and London, 2014).

D>haen, Theo, Dominguez, Cesar , and Thomsen, Mads Rosendahl, edited by

,World Literature: A Reader •

(Routledge, New York and London, 2012).

,D>haen, Theo

,The Routledge Concise History of World Literature •

(Routledge, New York and London, 2012).

,D>haen, Theo

“Why World Literature Now” •

, (A lecture delivered on 15 April 2011 on receiving doctor honoris causa from the University of Bucharest)

.39-University of Bucharest Review, Vol. I/ 2011, no.1 (New Series), Pp. 29